ما هي الصوفية

ليس من قبيل الصدفة أن يكون هنالك تصوف في جميع الأزمنة التاريخية سواء في الشرق أو في الغرب. فالصوفية إذن ظاهرة عالمية شاملة، وشأنها شأن جميع الظواهر العالمية، فإنها تلفت انتباه العقل وتستثير فضوله وتحثه على إدراك فحواها وما يندرج فيها من مفاهيم. فلم يتشبث بها الناس إلى هذا الحد لو لم تكن بمثابة استجابة لحاجاتهم الجوانية العميقة.

وقد لا يخفى على أي متتبع لهذه الظاهرة أنها متعددة الأوجه، أعني أن من العسير أن يجد لها الباحث تعريفا واحداً يشمل جوانبها المتباينة. فقد صرح ابن عجيبة الحسني في مقدمته لكتاب "إيقاظ الهمم" بأن للتصوف ألفي حد أو تعريف ترجع كلها إلى صدق التوجه نحو الله، بل صرح الكاتب نفسه بأن كل صدق في الطلب هو من فصيلة التصوف. وهذا الأمر من شأنه أن يؤسس للصوفية أساسا أخلاقيا ذاتيا فلا تعود مقصورة على التعامل مع غموض الأشياء.

ومما هو شديد الأهمية أن ينتبه الباحث إلى التباين الشديد بين تياراتها وأعلامها، فمدرسة بغداد تختلف بعض الشيء عن المدرسة الأندلسية التي تعنى كثيراً بمقولة وحدة الوجود. ولئن كان المحاسبي والغزالي أخلاقيين على نحو متميز، وكانت رابعة العدوية عاشقة عشقا روحيا بكل وضوح، فإن النفري شاعري الهوى والأسلوب إلى حد لم يؤلف من قبل. أما الحلاج المتأثر بالثقافة الهندية فتجر يدي إلى حد متطرف، فضلا عن أنه قلق ومضطرب حتى مخ العظام. ولعله أن يكون المؤسس الأول للشخصية الإشكالية أو المتوترة في الثقافة العربية. فلقد تعرض صوفيون إشكاليون آخرون لاضطهاد السلطة بسبب تطرفهم في مخالفة السائد. وكان مصير السهر وردي الحلبي الذي لاقى حتفه في السجن وهو في أوج العمر مثل مصير الحلاج تماما. أما ابن سبعين فقد انتحر، وقيل اغتيل.

إذن ثمة من التباين بين الصوفيين ما لا يسمح للظاهرة الصوفية بأن تكون أحادية النسيج أو متجانسة الماهية، بل إن فيها من الاختلاف بقدر ما فيها من الانسجام أو الاتفاق، إن لم يكن أكثر. ولكن البحث الراهن لا يتسع للخوض في هذه الموضوعة الشديدة الأهمية والتي تحتاج إلى دراسة مستقلة وكبيرة الحجم.

* * *

وقد يحالفني السداد إذا ما رأيت بأن الصوفية نتاج لرغبة النفس في السفور والتجلي للعيان أو في الخروج من الزمان الى حيث لا دمامة ولا رضوخ ولا كدمات، وإنما وسن حريري يشبه الثمالة أو الاسترخاء الهادئ المريح. فالصوفية لا تدير ظهرها لشيء بقدر ما تدير ظهرها للتاريخ والسياسة والصراع والتوترات الاجتماعية والمعيشية.

لهذا، فإن أشعار الصوفيين وهي جيدة في كثير من الأحيان تظهر فيها أخيولة متواترة مؤداها أن ليلى قد أسفرت عن وجهها فظهر الصبح جليا للعيان. وربما جاز الظن بأن هذه الأخيولة هي التعبير الرمزي عن جنوح النفس إلى السفور والمجيء

من التواري إلى الجهرة المرئية بالعين. وليس هذا الجنوح صوراً أو أشكالاً فنية فقط، بل هو حياة جوانية عارمة بالذاتي أو بالداخلي. فأهل التصوف حساسون تجاه كل ما هو سري وكل ما هو ذوقي أيضا. ففي عرفهم أن "الأسرار أذواق". وفي مذهب ابن عربي أن "علوم الأكابر ذوقية".

وفي الحق أن ليلى رمز كبير من رموز التصوف. فمما هو لافت للانتباه أن ابن عربي قد أعلن نفسه بوصفه أمين (سكرتير) ليلى والجدير بالتنويه أن هيغل، الفيلسوف الألماني المشهور، قد أعلن عن نفسه فيما بعد بوصفه سكرتير المطلق. ولا أحسب أن هنالك فرقاً كبيراً بين مطلق هيغل وليلى الصوفية. (أعلن ابن عربي عن نفسه أنه خاتم الأولياء، وأعلن هيغل عن نفسه أنه خاتم الفلاسفة. وهنالك الكثير مما هو مشترك بين ابن عربي وهيغل).

ويبدو أن ليلى عند الصوفيين هي سر الكون وروح الحياة كلها، بل هي رمز لكل ما هو سري أو مكنون. وقد يجوز الادعاء بأن ليلى عندهم هي سر الأسرار، أو لعلها رغبتهم في أن يكون لهذا الكون سر يتعبدون له ويهتمون به ويلاحظونه وهو يرخم في جوف الأشياء، ولا يراه إلا المختارون. ولهذا فقد ميزت الصوفية بين أهل البرهان وأهل العرفان، إذ الصنف الأول منطقي والثاني حدسي أو صوفي. كما أكدوا أيما تأكيد على أن السر أو الروح لا يبزغ إلا في برهة الكشف الذي هو فوق الإلهام ولكن دون الوحي المنزل من السماء، كما أكدوا على أن الإنسان باطن لا يرى بالعين المجردة، ولا بالقياس والبرهان، وإنما تعرفه الزكانة ذات الماهية الحدسية وحدها. إن ما يظهر من الإنسان هو لحاؤه فقط، أما باطنه فهو سر مكنون لا يجوز أن يهتك بتاتا. وما من قوة تملك أن تتعامل مع الأسرار سوى قوة الكشف وحدها. ومما يلفت الانتباه في هذا الموضع أن فلسفة امانول كانت الفيلسوف الألماني المعروف مبنية على مبدأ أهل التصوف القائل بأن للشيء ظاهراً يعرف وباطناً لا يعرف. وكما ذهب الصوفيون إلى أن للعقل حدوداً لا يملك أن يتجاوزها بتاتا، كذلك ذهب كانت هذا المذهب بل انهمك أيما انهماك بغية تثبيت حدود العقل والكشف عنها.

* * *

ولما كانت الصوفية ميلا إلى الاسترخاء المريح فإنها تشبه الطفولة التي تبتغي العيش في قلب الأبدية الساكنة، حيث لا زمان ولا ضرورة ولا قسر، وإنما هدأة هانئة قارّة أو مستتبة على نحو سرمدي. فمع أن أهل التصوف متوترون في الغالب، فإنهم لا يخفون ميلهم إلى خدر من شأنه أن ينأى بالروح عن كل توتر وأن يخلق فيها شعوراً بالدفء والاسترخاء اللذيذين. ولكن وحده الوجدان المرهف هو الذي يملك أن يفرز هذا الشعور اللطيف.

وبما أن الصوفية تبحث عن سكينة واسترخاء، فإنها تذهب إلى وجوب الاقتراب من الله، لا بوصفه السؤدد والجبروت، وإنما من حيث هو لطف ومحبة وجمال. ولهذا فقد ميزوا بين صفات الجلال وصفات الجمال. أما صفات الجلال فقبض، وأما صفات الجمال فبسط. والفرق بين الشيئيين شاسع منداح.

وعلى أية حال فإن الصوفية ترى الإنسان حنيناً وتوقانا منهوما إلى ما يتأبى على التحديد. وبهذا فإنها تتبدى بوصفها شعوراً بالسر وفتون المجهول وندائه الصادق الحميم. فهي محاولة تبذل لكي يتوسط العمق الروحي بين غياب الله وحضوره. ولذا فإنها تنبثق من الخبرة "بصفات القلب" على حد عبارة الغزالي الذي عدّ القلب "سراً من أسرار الله ولطيفة من لطائفه". ثم قال بأن كشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة، وهو مضنون به، بل لا رخصة في ذكره.

وما دامت الصوفية تنبثق من الفؤاد وليس من الذهن فإنها تجربة بداهة أو خبرة حدسية بصميم الروح من شأنها أن تربط الكمال بنسق علوي او رفيع. إنها نداء الأقاصي والنائيات، بل نداء اللانهاية أو محاولة للالتقاء بالعلو نفسه أو بالتعالي المجيد. وهذا يعني أن الصوفي كائن يمارس الحقائق الروحية الأصلية، كما أن له خبرة بتلك السمات التي من شأنها أن تجعل الوجود البشري تجربة تستحق أن تعاش.

وبالرعشة الصوفية يغدو العالم إخائيا بدلا من كونه عدائيا أو مأهولا بالشرور التي تحيله إلى بيداء قاحلة لا يتراءى فيها شيء سوى السراب. ولهذا يجوز القول بأنها شاحذ يشحذ الوجدان ويحرض الروح على التطلع نحو الحضرة الماورائية العالية. وبهذا التطلع تتمكن الصوفية من إضفاء المعنى والغاية على الوجود البشري الذي لن تكون له أية غاية ما لم يخلقها الناس. وهذا يعني أن واحداً من أبرز أهداف الصوفية هو إنقاذ عذوبة الحياة وجعلها تجربة تستحق أن تعاش، كما يعني أن الإنسان يتصوف لكيلا يتشيأ، أي لكيلا تتحول الروح إلى شيء بين الأشياء، أو لكيلا يتخثر ويترمد فيستحيل الإنسان إلى حياة جسدية خالصة.

ولكي يعيش الصوفي حياة روحية على الأصالة فإنه يعمد إلى الشعر والغناء والرقص والموسيقى. والرقص عندهم كالخمرة لا هدف له إلا تسريح النفس أو فكها من إسارها الخانق. وذلك لأنه تحرير من ربقة المألوف والعادي والرتيب، أو خروج من ضيق التجربة إلى رحابة الغرابة والانطلاق في اللا محدود نفسه. ويتم ذلك بعد الإزاحة والإدغام والعبث بالصور والأخيلة الشديدة الغموض. ويعرف هذا جيداً من قرأ "الفتوحات المكية" كلها. لأن في ذلك الكتاب تظهر الصور كما لو أنها قد انبجست من خيال جموح ومنفتح على جميع الاتجاهات.

فالصوفية، إذن، محاولة لدرء الترمد عن الذات. وربما جاز الزعم بأن هذا العامل هو الذي جعل الناس يتشبثون بها إلى هذا الحد البعيد. فبما أنها تتفطن للأسرار على الدوام، وبما أنها شديدة الاعتناء بالحب الصادق الحميم والراغب في الاتحاد بالكون والذوبان فيه، فإنها تملك أن تعزز الإنسان أو عالمه الداخلي وأن تصونه من التحول إلى خلاء بلا أي محتوى. وهذه وظيفة جلى لا تقل أهمية وفاعلية عن وظيفة الفنون والآداب. ولقد عرف الجنيد التصوف بأنه "الخروج من ضيق الرسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية". وهذا يعني السيولة أو الخروج من الحصار. وكل سيولة تجدد، وكل تجدد صيانة ونجاة من التخثر والجمود.

وفي الحق أن فنون الصوفيين، ولا سيما الرقص والغناء، هي فنون ربيعية تنتمي إلى النضارة والبكارة والاخضلال. ومن شأن هذه الحقيقة أن توحي للباحث بأن صيانة الذات من الهرم والسأم هي واحدة من أبرز أهداف الصوفية. فمن المعلوم

أنه لا يرقص ولا يغني إلا الشباب. والصوفية تبتغي أن تظل الدنيا شابة إلى الأبد. ولهذا، فإنك ترى الصوفيين متفائلين، في الغالب الأعم.

* * *

وقد بلغت اللغة الصوفية ذروتها في كتابات النفري، ولا سيما في كتاب"المواقف" الذي جعل النثر الفني يرقى إلى مستوى الشعر. فكان الرجل بمثابة متنبي النثر الذي عاصر متنبي الشعر وساواه في الأهمية والجودة وحسن إدارة اللغة. فلعل من الواضح أن النفري قد كان رائداً يرود واقعاً علويا لا حياة للروح على الأصالة إلا فيه، أو بواسطته وحده. فهو يكتب ما يشبه أن يكون ملحمة تجري في داخل الوجدان حصراً، إذ إن الرجل يأنف من العالم اللامادي ويستنكف عن مشايعته، كما أنه يمقت كل شيء مجسد أو ينزع إلى التجسد. إنه ثورة روحية على المادية، بل على المادة بوجه عام. ما أحوجنا اليوم إلى ثورة من هذا القبيل تملك أن تحد من تفشي هذه الوثنية الجديدة التي تعبد السلعة والاستهلاك.

وبفضل هذه المهمة الجليلة مهمة ارتياد العلو، جاء أسلوب النفري مهيبا وقوراً يأهله روح نبيل جليل. وأهم ما يميز هذا الأسلوب أنه ينبثق من طاقة حدسية تنبع من الأعماق السرية للنفس. وللحق أن كل ما هو أصلي إنما ينبع من أصول حدسية ذوقية يتعذر ادراكها بواسطة المفاهيم والتصورات الذهنية. وبفضل هذا العرام الاستبصاري استطاع الرجل أن يحيل اللغة المنثورة، لا إلى شعر وحسب، بل إلى أثير قبل كل شيء. ولئن لم تكن كتابة النفري شعراً صرفا فإنها في برهة الوساطة بين الشعر والنثر، لأنها توفق بين هذين الشيئين على نحو مدهش.

ولهذا فإن في ميسور المرء أن يشير إلى أن تراث النفري الصغير الكمية هو أحسن محاولة بذلتها اللغة العربية كي تجعل النص النثري نصا أدبيا يصلح أن يكون برسم الذائقة والمتعة الفنية، وذلك بفضل خيال الكاتب الذي هو جهد اختراطي شديد القدرة على اختراط شوط قلما يبذه أي شوط أخر. فالرجل منهمك بإنشاء نص صوفي شاعري يهدف إلى أن يكون نصا مقدسا عاليا من شأنه أن يسرد العلاقة الراسخة والقادرة على أن تنفي كل فصال وهجران، إذ لعل في ميسور المرء أن يلخص غاية النفري بأن المختارين متصلون بالماوراء، وهم يظلون على هذه الحال ما داموا ملتزمين بمبدأ التنـزيه الذي هو مبدأ رفض المادة، وهي التي تلوث نقاء الروح وطهرها وتحول بينها وبين الاتصال بالعاليات. فمما هو ناصع، إذن، أن النفري ثورة الروح على المادة ونفورها منها واستنكافها عنها.

وينبع النفري من التضاد أو من المثنويات التي تؤلف نسيج الوجود. وأبرز المثنويات في تراث النفري هي مثنوية "الله والسوى" أو مثنوية الروح والمادة، وهي التي تشدد على الفرق السرمدي المطلق الذي يفصل بين الخالق وبين مخلوقاته، وهذا موقف إسلامي دون أدنى ريب. وبسبب اهتمامه بهذه المثنوية فقد تكررت في تراثه هذه الآية القرآنية "ليس كمثله شيء"، أي إن السوي لا يشبه الله بتاتا.

وهنالك عدد من المثنويات الأخرى كبير جدا: الرؤيا والحجاب، الفرق والجمع، الظاهر والباطن، النطق والصمت، الليل والنهار، الحياة والموت، المعرفة والجهل، القرب والبعد، الحضور والغياب. فتراه مثلا يقول في الموقف الثاني والستين:" لا معلوم إلا الجهل".

ومما هو جدير بالتنويه أن كلمة "النار" تتواتر عدداً من المرات كبيراً ولافتا للانتباه. ففي كتاب "المواقف" وهو كتيب صغير، ذكرت النار إحدى وخمسين مرة على الأقل. وهذه حقيقة لا تخلو من دلالة، ولا سيما إذا تذكر المرء أن الزردشتية، التي ما زالت حية حتى اليوم، قد كانت تقدس النار وتعبدها. وإذا ما علمت أن النفري لم يذكر في كتابيه أي حديث نبوي بتاتا، كما أنه لم يقبس من القرآن الكريم سوى الآية الآنفة الذكر وحدها، فلا بد لك من أن تتساءل عن سر هذا الأمر المريب. ومما هو معلوم أن الاهتمام بالمثنويات إلى حد الاسراف هو خصيصة من خصائص المانوية، التي كانت لا تزال حية في القرن العاشر الميلادي، الذي هو قرن النفري.

ولعل أهم ما يرمي إليه ذلك الكاتب الصوفي هو تجاوز الأضداد والبلوغ إلى ما وراءها. ولا يتحقق هذا المطلب إلا بالرؤيا وحدها. فالرؤيا هي التي تبلغ إلى ما وراء الأضداد، وذلك لأنها تنبع من وجد باللامتناهي، أو من حنين سري يبتغي التجاوز والوصول إلى حيث لا زمان ولا مكان، أو إلى (حيث لا حيث)، على حد عبارة ابن الفارض. ولكن الرؤيا إنجاز لا يقوى عليه إلا الأقوياء بل لا يقوى عليه إلا ذلك الفرد الفريد الذي لا يرضيه القليل. ففي عقيدة النفري أن " مأواك رضاك". وفقا لما جاء في الموقف الثاني والأربعين.

فما معنى النظر إلى الكون بوصفه وحدة أضداد؟ معناه أن الكون أو الوجود بنية محتدمة متوترة ومتصارعة. وما دام الأمر كذلك، فلا بد من الفرار إلى الما وراء بعد مغادرة المادة. وما معنى الذهاب إلى ما وراء الأضداد؟ معناه الاستنكاف عن الشر والتخلص من كل نقض وصراع. فالصوفية في لبابها نزعة تبتغي صلح الأضداد أو البلوغ إلى ما بعدها. وآخر أهداف الصوفي هو السلام والوئام والتجانس والقضاء على كل خلاف واحتدام. ومما هو معلوم أن السلام هو الله نفسه. وأن السلم سمة من سمات الجنة. فهو لا يرى الآخر الجوهري إلا من حيث هو الكائن الذي لا تحده الحدود ولا تقيده القيود. ولكن هذا الآخر الذي ليس كمثله شيء يحتل الفسحة التي تتلاشى فيها الأضداد ويمحي الصراع وتنطفئ جميع التوترات والنيران، ويتم البلوغ إلى سلام فردوسي جليل.

وعلى أيه حال فإن الرؤيا هي وحدها التي تملك أن تتجاوز الأضداد لتبلغ إلى فسحة السكينة حيث ينداح المشهد الأثير الاحتفالي أو الاستسراري. ولهذا كانت الرؤيا مقولة شديدة الأهمية في مذهب النفري. بل لعلها أن تكون المقولة المركزية أو المحورية في المنهج كله. وهو يصرح جهراً بأنها سمة من سمات الروح. يقول: "الروح والرؤيا إلفان مؤتلفان". كما أنه يبرهن على أن الرؤيا هي التي تتجاوز الأضداد بقوله: "من رآني جاز النطق والصمت". وكذلك بقوله: "إذ بدوت لك فلا غنى ولا فقر." وله أقوال كثيرة بهذا الخصوص لعل أهمها هذا القول: "لا تستظل

بالمفازة، فما في رؤيتي إضحاء ولا ظل". وكذلك هذا: "من لم يرني فلا علمه نفع ولا جهله ارتفع". وأخيراً هذا: "الرؤية باب الحضرة".

* * *

ومما هو معلوم أن التراث الصوفي من الفخامة بحيث لا يحاط به بتاتا. بل قد لا تتيسر الإحاطة حتى بتراث كاتب واحد مثل الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، الذي بلغ التصوف معه ذروة نموه وتطوره عبر الزمان. فكتاب "الفتوحات المكية" وحده يتألف من مليونين وربع المليون من الكلمات على وجه التقريب. وتتأتى أهمية هذا السفر الموسوعي الخالد من أنه أول كتاب في التاريخ البشري يؤسس لمذهب إنساني يرى الإنسان تاج التطور وغاية المادة. يقول في الجزء الثاني من " الفتوحات": "الإنسان هو العين المقصودة." ويقول في المصدر نفسه: "الإنسان هو الكلمة الجامعة ". ولعل هذا المقبوس الصغير أن يلخص مذهب ابن عربي كله: "وأما من خرج من سجن الزمان وفكت القيود عن نظره فإنه يرى وجوداً واحداً متجلياً بلا بداية إلى غير نهاية، بلا قيد زماني أو مكاني وموجوداته، حاضرة لدية هو عين الموجودات الاعتبارية الخيالية العارضة له بحسب المدارك لا غير. فتوحدت الكثرة بهذه الوحدة الحقيقية، وصح قولنا: "ما ظهر عن الواحد إلا الواحد."

بيد أن الكتاب الصوفيين الذين أتوا بعد الشيخ الأكبر لا يقلون عنه جودة، أي من الناحية الكيفية، ولا سيما ابن سبعين والجيلي وابن عجيبة الحسنى. ولا مبالغة في الزعم بأن ابن سبعين رجل نادر جدا، فهو صاحب شعار قوي وثوري: " اكفروا بحقيقة عصركم." أما حقيقة ذلك العصر، بل كل عصر، فهي المال والاستبداد. وكان الجيلي المتتلمذ على الثقافة الهندية برهة راقية في تاريخ التصوف العربي، فقد استطاع أن يطور فكرة "الإنسان الكامل" التي رسخها ابن عربي والتي شوهها نتشة بعد ذلك بمقولة الإنسان المتفوق أو السوبر مان، وذلك في كتاب جيد عنوانه" الإنسان الكامل" وبذلك فقد برهن الجيلي على أن نزعة الكمال هي واحدة من أبرز غايات الصوفية

لقد ترك ابن عجيبة الحسنى (1747_1809/1160_1224) كتاباً ممتازاً عنوانه "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، وهو الذي خصصه لشرح حكم ابن عطاء الله السكندري. وفي الحق أنه كتاب نفيس ونادر النظير، إذ استطاع صاحبه أن يقرأ الحكم قراءة من شأنها أن تتوسط بين الشعر والفلسفة. وخرج منها بمشاعر وأذواق وأفكار هي في ذروة الرقي والسمو. فأكد مثلا على أن "الكرامة العظمى هي المعرفة "، وأن "الكائنات تكثيف للسر اللطيف"، وأن غايتك المثلى هي تحريرك من رق نفسك وكمائنها التي تنصبها لإيقاعك في النكبات. ولا تتحقق هذه الغاية إلا بسعيك من أجل حيازة الحقيقة التي هي "بيت الحضرة". ومما هو مثير للدهشة حقا أن يظهر في العالم العربي كتاب متميز من هذا النوع في القرن الثامن عشر الميلادي، يوم بلغت الثقافة العربية أدنى مستوى من مستويات انحطاطها. ولكن هذا الكتاب برهان حاسم على أن ناموس الاستثناء يعمل في كل زمان ومكان.

* * *

لست أزعم أنني شرحت الصوفية عبر هذه العجالة أو هذا العدد الطفيف من الصفحات ولكنني أظن أن مقالي هذا يتآزر مع سواه من المقالات التي كتبتها عن الصوفية ليذكر الباحثين بأن ثمة في اللغة العربية تراثا صوفياً شديد الفخامة، ولهذا فإنه يستحق العناية والاهتمام، بل يستحق أن يتخصص فيه المرء ويكرس له شطراً كبيراً من عمره.